ISSN: 2090 – 0449 Online
Type of License: CC BY-NC-ND
DOAJ API documentation: 359c88a5cecf4f7faa1c2f538c431346

الاختلافات المذهبية
ودورها في تغذية النزاعات والحروب في التاريخ الإسلامي

د. عبد المجيد نوري

الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين
جهة طنجة
تطوان – المملكة المغربية

مُلَخَّصْ

يبدو أن لا جدال في كون الرجوع إلى التاريخ يشكل ضرورة علمية لفهم الحاضر واستشراف المستقبل. وفي ضوء ذلك، تحاول هذه الدراسة أن تبرز دور الاختلافات المذهبية في نشوب الكثير من الفتن والحروب التي عاشتها الأمة الإسلامية، سواء في الماضي، مثلما حدث بين علي (رضي الله عنه) وبين الخوارج، أو في الوقت الراهن، كما هو الحال في سوريا والعراق واليمن. فالمعلوم أن هذه البلدان تعيش حروبًا وصراعات دامية حول المصالح المادية والامتيازات السياسية، خلال ما سمي الربيع العربي. بيد أن هذه الحروب أصبحت مؤطرة بالاختلافات الأيديولوجية، وبالمرجعيات المذهبية التي تغذيها وتستغلها بعض القوى الإقليمية والدولية، خدمة لأغراضها الاستراتيجية، والأمة تتجه بطبيعة الحال في الحاضر، سبيل ما وقع لها في بعض فترات الماضي، نحو مزيد من الدمار والتخريب والتقسيم، ومن ثَمَّ خلص البحث إلى أن تدبير الاختلاف لحل هذه الأزمات المعاصرة، يقتضي ضرورة تحلي الأطراف المتصارعة التي أصبحت في وضع حرج بالحكمة والشجاعة، كي تقف مع ذاتها وقفة متأنية للخروج من هذه الورطة التاريخية. ذلك بأن تؤمن بخيار ثقافة الحوار، وأن توقف كل أشكال القتل والاقتتال، وتقدم ما يكفي من التنازلات المرحلية، لتحقيق التوافقات السياسية، حفاظًا على مصالح الأمة وعلى دماء الأبرياء، وتلك أفضل النتائج، بل وأشرفها. وتبقى المعركة الفكرية لفرز الأصلح من بين هذه المذاهب الفكرية المغذية لهذا البلاء والمحن التي عاشتها الأمة وما تزال، مشروعًا مفتوحًا على المستقبل، وهي مسألة ليست بالهينة. فالواقع أن مَنْ اعتقد رأيًا أو ذهب مذهبًا وتصوره وتحقق به صارت أخلاقه وسجاياه مشاكله لمذهبه واعتقاده فيصعب إقلاعه عنها وتركه لها كما قال إخوان الصفاء.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٥ مايو ٢٠١٥
تاريخ قبـول النشـر: ٢١ سبتمبر ٢٠١٥

كلمات مفتاحية:

التاريخ الإسلامي، الفرق المذهبية، الشيعة والخوارج، الربيع العربي، الأمة الإسلامية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عبد المجيد نوري. "الاختلافات المذهبية ودورها في تغذية النزاعات والحروب في التاريخ الإسلامي".- دورية كان التاريخية.- العدد الواحد والثلاثون؛ مارس ٢٠١٦. ص١٣٨ – ١٤٥.

مُقَدِّمَةٌ

يعتبر موضوع الفرق المذهبية ودورها في التطور التاريخي للأمة الإسلامية عمومًا، وما عرفته هذه الأمة في ضوء ذلك، من نزاعات وحروب مدمرة، حول المال والسلطة على وجه الخصوص، من بين المواضيع التاريخية ذات البعد السياسي والمذهبي التي أثارت وما تزال اهتمام المؤرخين والباحثين، من أهل السياسة والفكر والفقه والتاريخ... وغيرهم. ولا غرو أن دراسة الموضوع تساعد على رصد بعض الحروب والأزمات السياسية التي عاشتها الأمة الإسلامية، وما تزال. تمامًا مثلما تمكن من الوقوف على بعض أسبابها ونتائجها الكارثية، سواء في الماضي، شأن ما حدث بين علي ومعاوية، وكذلك الحال ما وقع بينهما وبين الخوارج، أو في وقتنا الراهن، سبيل ما يقع خلال ما سمي بـ "الربيع العربي". هذا الربيع الذي اتسم فيه الصراع بأبعاد مذهبية وإيديولوجية، بدعم وتدخل قوى إقليمية ودولية خارجية. والأمة تتجه بطبيعة الحال نحو مزيد من الدمار والتقسيم والتخريب. وذاك ما لا يقبله كل ذي عقل سليم، وقلب غيور على واقع الأمة وعلى دماء أبنائها ومستقبلها الحضاري.

من هذا المنطلق، جاء اختيارنا لهذه الدراسة المتواضعة، باعتبارها محاولة طموحة تروم إبراز دور الاختلافات المذهبية في بعض الفتن والحروب التي عاشتها الأمة الإسلامية. كما تنشد الإسهام في النقاش الدائر حول الحروب والأزمات السياسية المعاصرة، وعلاقة ذلك بتعدد المذاهب الدينية واختلاف آرائها في مسألتي الإمامة والحكم. وهكذا، تسعى هذه المحاولة إلى تسليط بعض الأضواء على ظروف نشأة بعض هذه المذاهب، وعلى الاختلافات القائمة فيما بينها، وما تزال، حول مسألة الإمامة والحكم، مع ما ترتب عن ذلك من حروب وفتن، كانت بطبيعة الحال من أسباب القهقري والتردي الحضاري الإسلاميين. ومن ثَمَّ سنحاول أن نبرز أيضًا علاقة الماضي بالحاضر في ذلك، أو بالأحرى تأثير الماضي في واقعنا المعاصر. ذلك على أمل الاستفادة منه، لاحتواء أزماتنا المعاصرة والسيطرة عليها واقتراح حلولاً ناجعة لها، وربما تفادي وقوعها في المستقبل. سبيلنا في ذلك الاستئناس بالتاريخ البشري عمومًا، وبتاريخ الأمة الإسلامية على نحو خاص. فلا ريب أن علم التاريخ كثير الفوائد والعبر. ولذلك تطلبه سائر الأمم والأجيال، التي تجمعها علاقات اجتماعية قددا ومعقدة بطبيعة الحال.

الاختلافات المذهبية في التاريخ الإسلامي

وردت في مقدمة ابن خلدون فكرة أساس مفادها أن " الاجتماع الإنساني ضروري".[١] يرجح ذلك ما ذكره إخوان الصفاء من قبله، كون الإنسان الواحد لا يقدر أن يعيش وحده إلا عيشا نكدا، لأنه محتاج إلى طيب العيش من إحكام صنائع شتى، ولا يمكن للإنسان الواحد أن يبلغها كلها، لأن العمر قصير، والصنائع كثيرة، فمن أجل هذا اجتمع في كل مدينة أو قرية أناس كثيرون لمعاونة بعضهم بعضا.[٢] وهكذا خلص بعض الحكماء إلى أن "الإنسان مدني بالطبع".[٣] كل ذلك يفسر أن الإنسان كائن اجتماعي، وفاعل تاريخي بامتياز. ولا مراء أن حقيقة التاريخ، تتجلى في كونه خبرا عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال. لذلك نساير الرأي القائل:" إن تقدم الشعوب مرهون باكتشاف شعورها التاريخي، فهو الذي يضعها في الزمن ويجعلها تحدد دورها في مسار التاريخ.[٤] ولولا التاريخ لضاعت مساعي أهل السياسة الفاضلة، وجهلت الدول، ومات ذكر الأول، وضمن ذلك معتبر وموعظة ومزدجر يفيد قارئه حكمة وإلهاما، وبقرطس من الآراء المسددة سهامًا،[٥] إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم والملوك في دولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا.[٦]

وغير ذي شك، أن الكيس إذا نظر بفطنته في أخبار الناس، واطلع منها على وصف الحروب والمراس، قام له ذلك مقام المشاهدة والعيان، وتمثلت له الأحداث مصورة بأفصح البيان، فيزيد بمعرفة ذلك حنكة وتجربًا، ويكتسب تخريجًا وتدربًا.[٧] والمعلوم أن الأمة الإسلامية عاشت في تاريخها الطويل حروبًا وصراعات كثيرة، ولم تتجزأ جراء ذلك إلى دويلات مستقلة ومتحاربة فحسب، بل وانقسمت أيضًا إلى فرق ومذاهب فكرية متباينة ومتناحرة. ولا مشاحة أن كتب الفرق والملل والنحل تساعد على معرفة بعض مبادئ هذه الفرق والمذاهب، تمامًا مثلما تمكن من إعادة بناء فكر الغلاة منها، خصوصًا وأنها تدور كلها حول محور واحد هو الإمامة.[٨] وكانت لها في ذلك آراء وأقوال.

أما الشيعة على سبيل المثال، فقد جعلوها حصرا على علي رضي الله عنه، وذريته من بعده، بل ويزعمون أن النبي صلوات الله عليه، عهد له بها[٩]. ويحتجون في ذلك بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم، لا يعرفونها جهابذة السنة ولا نقلة الشريعة، بل أكثرها موضوع أو مطعون في طريقة، حسب ابن خلدون.[١٠] وفي ضوء ذلك، يقولون إن عليا رضي الله عنه كان أحق بالخلافة من أبي بكر وعمر وعثمان. وفي مقابل ذلك، كان هناك فريق آخر يعارض هذا الرأي، ويرى أن النبي (ﷺ) لم ينص على من يخلفه، وترك الأمر للناس يرون ما يصلح لهم ومن يصلح لهم.[١١] أما الخوارج فهم يؤلفون في واقع الأمر جبهة معارضة للأمويين والعباسيين،[١٢] ولذلك لم يكونوا أصحاب فكر ونظر، بل كانوا أصحاب ثورة دائمة على الحكم الأموي.[١٣] وقد كان رأيهم في الإمامة إن كان لابد منها، فأصلح الناس لها أحق بها، قرشيا كان أو غير قرشي، عربيًا أو غير عربي.[١٤] وهكذا رفعوا شعار لا حكم إلا لله، وصار هذا الشعار يحمل مضمونا آخر عندما ترجم إلى شعار "الأمر شورى والبيعة لله عز وجل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"، ثم إلى مبدأ الخلافة لكل مسلم عادل[١٥] وبذلك خالفوا أهل السنة والشيعة على السواء.

عمليًا، كانت مبايعة عيسى بن يزيد الأسود بالإمامة، وهو من موالي العرب وانصياع صفرية مكناسة لبيعته، بعد أن حملهم أبو القاسم سمكو على الاعتراف بإمامته، تطبيقا عمليا لرأي الخوارج في الإمامة.[١٦] بيد أنهم سخطوا عليه، بعد نزوح بقية بطون مكناسة نحو سجلماسة وقاتلوه بطريقة قاسية تنم عن تطرف الخوارج الصفرية وميلهم نحو العنف.[١٧] والشيء نفسه يقال عن الاباضية، فقد بايعوا عبد الرحمن بن رستم بالإمامة وهو من الفرس[١٨]، فتوافد الناس على تاهرت من كل ناحية. وكما انقلب صفرية مكناسة على عيسى بن يزيد الأسود، رغم أنه أدخل نمطا جديدا على سجلماسة، إذ شق القنوات واستكثر من غرس النخل،[١٩] فقد انحصر الاختيار حسب أحد الدارسين[٢٠] بين عبد الوهاب بن رستم، بصفته واحدا من بين الستة الذين اختارهم أبوه لشغل منصب الإمامة من بعده، وبين مسعود الأندلسي، ثم انسحب هذا الأخير وبقي عبد الوهاب فتولى الإمامة.

هكذا، غلب مبدأ الوراثة على مبدأ الاختيار والشورى، معنى ذلك أن الصفرية[٢١] والاباضية قبلوا على السواء لأنفسهم ما أنكروه على غيرهم في الأخذ بمبدأ الوراثة في ولاية أمور المسلمين،[٢٢] وأصاب الرأي محمود إسماعيل إذ قال: إن التزام خوارج المغرب بعقائد المذهب في سياستهم ونظمهم كان خلال السنوات الأولى من حكم أئمة بني مدرار في سجلماسة وبني رستم في تاهرت، إذ طغت تعاليم المذهب على

دوافع العصبية والعنصرية. وعندما انقلبت الأمور، كان من الطبيعي أن تظهر حركات انشقاقية. خير دليل نسوقه على ذلك، هو ظهور فرقة النكارية، أي المنكرين لإمامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، وفرقة أخرى تسمى الوهابية أي أنصار عبد الوهاب. وقام الصراع التقليدي على الحكم ووقعت الحرب... فسالت الدماء بين هؤلاء المثاليين على مسألة وراثة الحكم،[٢٣] كما سالت دماء كثيرة في فترات متعددة بين الشيعة والسنة من جهة، ثم فيما بين هؤلاء والخوارج من جهة أخرى، سواء المعتدلين أو المتشددين منهم، من قبيل الأزارقة، أتباع نافع بن الأزرق الحنفي المتوفى سنة (٦٠هـ) هذا الأخير الذي أباح قتل أطفال مخالفيه،[٢٤] واستحلال الأمانة لأنه يراهم كفارًا.

ومعلوم أن الخوارج اعتبروا عليا وحزبه كفارا لأنهم قبلوا التحكيم، وكتاب الله واضح لا يقبل تحكيما، ثم قالوا إن الولاة الظلمة من معاوية وقومه من الأمويين كفرة، ويجب أن يقابل كفرهم وظلمهم وجورهم، بالخروج عليهم جهارًا.[٢٥] وبذلك رفضوا إمامة علي ومعاوية، وأنكروا احتكار قريش لها، ودعوا إلى الثورة على مخالفيهم باعتبارهم كفرة مارقين،[٢٦] فكان تعاملهم مع الخصوم ينبني على حد السيف.[٢٧] ويبدو على صواب مَنْ قال إن "التطرف الشديد كان من خصائص فكرهم السياسي"، ومن أسباب فشلهم أيضًا، حتى قيل بأن سياستهم غير سياسة،[٢٨] ولكنه كان أيضًا أحد أسباب الحروب والفتن التي عاشتها الأمة الإسلامية، تمامًا مثلما كان الفكر السياسي لبعض الفرق المذهبية، وعلى رأسها الشيعة، سببًا لذلك. حقيقة ذلك، يمكن الوقوف عليها من خلال الرجوع إلى بعض المصنفات التاريخية،[٢٩] حيث يجد الباحث ما يكفي من النصوص والأحداث التي تبرز طبيعة الخلافات المذهبية ودورها في الحروب والفتن التي عرفتها الأمة الإسلامية وما تزال، بغض النظر عن الأسباب والدوافع الأساس المحركة لهذه الحروب والفتن إن ماديًا أو سياسيًا.

وعليه، فالقراءة المتفحصة لتاريخ الأمة الإسلامية واستخلاص العظات والعبر منها قمينة بإخماد نار الفتنة فيها، تماما مثلما هي قادرة على إشعال فتيلها، خصوصًا من قبل الأعداء والمتربصين بها سواء كانوا في الداخل أو في الخارج، ويتحقق لهم ذلك كلما اتخذت الأمة من الحذر عدوا، وغابت عنها الوحدة والحكمة وحسن الرأي والتدبير. فالواقع أن الأفكار والمعتقدات والمذاهب لا تموت، وإن كانت مضامينها مضمرة ومدفونة في مقابر اللاشعور الجمعي واللاوعي التاريخي، لأنها محنطة في كتب الفقه والتاريخ والآداب والأنساب والطبقات، وفي ذاكرة العلماء والمتعلمين والأجيال بالأساس، رغم ما يشوبها من تشويه وما يمكن أن تعرفه من تطوير.

وغير ذي شك أنه ببضعة نقود تخرج في الغالب من جيوب الأعداء في الخارج، وبتغذيتها بحماس بعض المخالفين وتطلعاتهم في الداخل، خصوصا في ظل تخاذل الحكام وجورهم وإهمالهم لشؤون الرعية، يمكن إحياء بعض هذه الأفكار والمعتقدات المنتمية لهذا المذهب أو ذاك، أو لهاته الطائفة أو تلك، فيتم بعثها من جديد لتشعل نار فتنة جديدة قديمة، تجيش لها العامة، ولعل طلعها رؤوس شرذمة شبه مثقفة أو متعلمة، طامحة أو مرتشية. وغير بعيد أن مدبريها عصبة من المثقفين والمفكرين، وهم في الغالب من غير أهل الدار، خدمة لأغراضهم الاقتصادية والسياسية والدينية...، كونهم أعداء الأمة. ومن أهم الشواهد في هذا الصدد، ما حدث باليمن التي قلما اجتمعت قواعدها الكبرى، وهي صعدة وصنعاء وتعز وزبيد... على رأي واحد، لا في السياسة ولا في غيرها، إثر التهيء للمشروع الشيعي الفاطمي، باسم الدعوة لآل البيت، ذلك عندما استعان شهر بن حوشب، استنادا إلى دراسة معاصرة،[٣٠] بأموال رجل فارسي كاره للعرب يسمى دندان، ولعله الدور نفسه الذي يقوم به اليوم الغرب والروس وإيران في السر والعلن.

ذلك في رأينا هو "سم التاريخ" الذي نحقن به ونحن في سبات عميق، فنصحوا كل ربع قرن لنفتن فيه مرة أو مرتين، يقتل بعضنا بعضا، فتصعق الأمة بأيدي الغدر والعملاء، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين.[٣١] عمليًا، اتخذ الانقسام الذي أفرزته الثورة على عثمان طابعًا نهائيًا بفعل عمق الجرح واتساع الهوة بين الفئات المتناقضة التوجهات في المجتمع الإسلامي...، بالإضافة إلى نشوء الفكر السياسي في تاريخ الإسلام وولادة الفرق السياسية[٣٢] والمذهبية، هذه الفرق التي ظهر معظمها في العصر العباسي، علمًا أن كل فرقة تعتبر نفسها الفرقة الناجية، بل وصاحبة الحق والرأي الصائب، فتوظف كل ما تملك من وسائل القوة والعنف للدفاع عن رأيها وتحقيق طموحاتها. ونعم الاختيار أن يلجأ المرء في ذلك إلى أسلوب الإقناع والحوار وقرع الحجة بالحجة، والبقاء في النهاية للأقوى.

والأغلب على الظن؛ أن هذا الواقع بخصائصه الفكرية السالفة الذكر، يعتبر من أعقد المشكلات التي يصعب السيطرة عليها لتذويب الخلافات وحل المشكلات، بغية تفادي الحروب والصراعات بين مذاهب العالم الإسلامي وبلدانه على مر التاريخ، فقد يهون الصراع أو تسهل السيطرة عليه من أجل المصالح المادية، سبيل ذلك سبيل الحرب من أجل الجاه والمناصب السياسية، حيث مجال التنازلات والتوافقات، حقنا لدماء الأبرياء، نموذج ما حصل عام الجماعة عندما بايع الحسن بن علي عليه السلام معاوية وسلم الأمر إليه.[٣٣] وكان ذلك من دون ريب، موقفًا رشيدًا وحكيمًا. فقد أيد الله سبحانه دينه بالاتفاق والائتلاف، وحرم مسالك الشتات ودواعي الاختلاف[٣٤]. قال تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ".[٣٥] وقال جل علاه "وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا".[٣٦] يتضح من هذه الآيات الكريمة أن الإسلام يدعو إلى الوحدة والجماعة، وينهى عن التفرقة[٣٧] والشتات، لأن الدين واحد، والحق كذلك. ومن المسلم به أن ييسر ذلك كما سبق ذكره، عملية السيطرة على الحروب والنزاعات في العالم الإسلامي، مهما كانت دوافعها المادية أو السياسية أو بتحريك نعرات القبلية والعرقية بفعل فاعل، مثلما حدث بين ملأ من الأوس والخزرج، إذ مر بهم رجل من اليهود فساءه ما هم عليه من

الاتفاق والألفة، فبعث رجلا معه وأمره أن يجلس بينهم ويذكرهم ما كان من حروبهم يوم بعاث وتلك الحروب، ففعل، فلم يزل ذلك دأبه، حتى حميت نفوس القوم وغضب بعضهم على بعض، وتثاوروا، ونادوا بشعارهم وطلبوا أسلحتهم، وتواعدوا إلى الحرة، فبلغ ذلك النبي (ﷺ) فأتاهم فجعل يسكنهم ويقول أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم.."فندموا على ما كان منهم واصطلحوا وتعانقوا والقوا السلاح.[٣٨]

وبقدر ما يتضح في ضوء ما تقدم، مدى يسر السيطرة على الحروب والنزاعات، في ظل الوحدة والجماعة وتحكيم العقل وحسن الرأي...، بقدر ما يبدو أن ذلك يصبح أكثر تعقيدًا وصعوبة، خصوصًا في وقتنا الراهن، عندما ينتقل الصراع من المنطلقات المادية والسياسية... إلى حلقة المذهبية، فيصرف كل فريق أكثر همه وعنايته إلى نصرة مذهبه، وتحقيق اعتقاده في جميع متصرفاته، فيصير ذلك خلقًا وسجية وعادة يصعب إقلاعه عنها وتركه لها.[٣٩] والحال أن كل فريق يعتبر نفسه فقط على حق، ومن خالفوه على باطل، ويصل الأمر عند الغلاة والمتطرفين إلى حد تكفيرهم ووصفهم بالمروق، وبالتالي وجب قتلهم ومحاربتهم، شأن ما نادى به الخوارج الذين اعتبروا من بقي في صفوف علي وصفوف معاوية ولم يخرج فهو عندهم كافر، وأصبح التعامل فيما بينهم قائما على حد السيف...، ودخل الخوارج في حرب مع علي إلى أن اغتاله أحدهم، ثم انخرطوا في ثورة دائمة ضد الدولة الأموية استمرت مشتعلة منذ قيامها إلى سقوطها.[٤٠]

بديهي أن تدخل الأمة بسبب هذه التفرقة والمعتقدات، مثلما حدث بين الخوارج وبين علي ومعاوية، في فتن وحروب أهلية مذهبية طائفية... يروح ضحيتها الأبرياء من الأطفال والشيوخ والنساء، وتهتك فيها الأعراض وتستباح الأنفس والأموال، وتغتصب النساء وقد يلد بعضهن جراء ذلك. وهذا ما نشاهد ونسمع بعض صوره اليوم عبر وسائل الإعلام، في زمن ما سمي "الربيع العربي"، عصر القتل وهتك الأعراض، وربما دفن الناس أحياء، وحقن بعضهم بالجراثيم الخبيثة، ناهيك عن استعمال الأسلحة المحظورة من قنابل ومواد كيماوية وغازات سامة وبراميل متفجرة وغيرها. ومعلوم أن الأمة تتجه في الحاضر، سبيل ما وقع لها في بعض فترات الماضي نحو مزيد من التخريب والدمار والتمزق والتقسيم، وكل ذلك بفعل جرثومة خبيثة تم حقنها في جسدها، ولا ندري يقينا كيف؟ ولا متى؟ ولا من قبل من ؟ إنما المعلوم أن" التشيع اعتنقته طوائف مختلفة للأسباب مختلفة، بل اعتنقه أيضا قوم أسوأ من هؤلاء، قوم أرادوا الانتقام من الإسلام فتظاهروا بالغلو فيه خديعة ومكرا"، ومن ضروب الغلو، استنادا إلى دراسة معاصرة،[٤١] الغلو في التشيع. فقد دخل في صفوف الدعاة من أهل الإيمان بإمامة علي وأبنائه أو من أهل الطموح السياسي والمالي، جماعات من الفرس وغيرهم من أصحاب الآراء الغريبة عن الإسلام، فنشأت فرق الشيعة الكثيرة.[٤٢]

والراجح أن هناك طائفة من الموالي أسلمت نفاقًا، لأنها رأت أن السبيل إلى المال والجاه والسلطان لا يكون إلا بالدخول في الإسلام، فأعلنت اعتناقه ولم يدخل الإيمان قلوبها، ولم تدع فرصة للكيد للعرب إلا انتهزتها، كما دعت إلى الشعوبية والمذاهب الدينية القديمة.[٤٣] ذلك كما قلنا سابقًا، هو السم الذي تحقن به الأمة من حيث تدري وهي لا تدري، فيقتل بعضها بعضا، ويتآمر بعضها على بعض، سواء مع الأصدقاء أو الأعداء. ففي زمن المستنصر الفاطمي على سبيل المثال، حاول أحد وزراء هذا الأخير، يدعى أبو محمد الحسن ابن علي اليازوري، التخلص من مشاكل عرب بني هلال في مصر، وفي الوقت نفسه أراد تأديب المعز بن بادس، الذي أعلن استقلاله عن الفاطميين وعاد إلى المذهب السني، ودخل في طاعة الخليفة العباسي، فقام بضرب بعضهما ببعض، ومن أجل ذلك أقطع بني هلال وبني سليم بلاد افريقية والمغرب ونقلهم إليها، بيد أنه لم يفكر في الضرر الذي يمكن أن يلحقه هؤلاء بافريقية وأهلها، من قتل وتهجير وغير ذلك.

ولم يطفح على السطح مثل هذا التآمر في تاريخ العالم الإسلامي حسب ما نعلم، بما ينجم عنه من قتل واقتتال...، إلا عندما انقسم الناس شيعا ومذاهب، وبذلك تفرقت بهم السبل، وخرجوا عن الطريق الصحيح، طريق النبي (ﷺ)، وصحابته الكرام، تحديدًا أبا بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، قال تعالى: "وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ".[٤٥] ومن ثَمَّ، نرجح أن ما حدث من صراع بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، وهما من صحابة رسول الله، لا يدفع المرء إلى التفكير في كونهما اختلفا على الإطلاق في الأصول، أو حول إحدى وصايا رسول الله (ﷺ). ولذلك يبدو لنا أن هذا الصراع الدموي الطويل بين الشيعة والسنة وغيرهما من الفرق الأخرى، إنما مرده إلى أفكار مسمومة دخيلة على الإسلام والمسلمين، من المنافقين والمتربصين بهما. وهنا تبرز قيمة ما ذكره حسين مساوي، صاحب كتاب "لله ثم للتاريخ"، نقلاً عن أحد الصحافيين،[٤٦] حول هذا الموضوع قال: "إن مكوثي هذه المدة الطويلة في حوزة النجف العلمية واطلاعي على أمهات المصادر، جعلني أقف على حقائق خطيرة يجهلها أو يتجاهلها الكثيرون، واكتشفت شخصيات مريبة كان لها دور كبير في انحراف المنهج الشيعي.

ويذكر المؤلف من بين هذه الشخصيات اسم عبد الله بن سبأ، وكان يهوديًا، وهو أول مَنْ أظهر التشيع والغلو في حب علي بن أبي طالب. ويذكر طائفة من علماء طبرستان، ممن وصفهم بأنهم يهود تدثروا بعباءة الإسلام، من أمثال النوري الطبرسي، الذي ألف كتابًا للطعن في صحة القرآن، إضافة إلى بعض رواة الحديث الذين لم يعتنقوا الإسلام إلا بغرض وضع الأحاديث والروايات المكذوبة، وعلى هؤلاء مدار رواية معظم الأحاديث التي يعتد بها أتباع المذهب الإثنى عشري. وقد استغلت الدماء المسفوكة والمصالح السياسية لسقي هذه الأفكار التي ترعرت وأثمرت مذاهب متعددة مشتهة وغير متشابهة. وهكذا يبدو أن الترياق الحقيقي لهذا الداء العضال، يكمن في ضرورة وكيفية استئصال هذه الحقائق الأوهام، الكامنة في اللاوعي

الجمعي والذاتي التاريخيين، والعودة بالأمة إلى وحدتها وعزتها وإلى قيمها وأخلاقها السامية التي أعطتها هذه الوحدة القائمة على أساس العدل والمساواة والأخوة، بعيدا كل البعد عن القبلية والعصبية، إذ لا فرق في شرع الله وسنة رسوله الكريم بين عربي وبين عجمي، ولا بين أبيض وبين أسود إلا بالتقوى.

ومن ثَمَّ، وجدنا الناس في فجر الإسلام، زمن النبي (ﷺ) متآزرين متضامنين، مثل تآزر أعضاء الجسد الواحد وتضامنها. وكان منهم القرشي والحبشي والرومي والفارسي وغيرهم، يقف بعضهم إلى جانب بعض في السراء والضراء. والراجح أن سائر تصرفاتهم ومختلف أنماط أفعالهم الاجتماعية، كانت قائمة على هذا الأساس، في ضوء قيمهم وقواعدهم الذاتية والجمعية اللاشعورية، شبه المتعالية عن العرقية والقلبية، بيد أنها كانت خالية من أي مذهبية. ولا مناص من القول، إن الإسلام يكفل حقوق كافة الشرائح غير المسلمة في دار الإسلام ومنها ما يتعلق بالعرض والمال والنفس والدين وغيرها، ولكنه يفرض عليها بالمقابل واجبات تهدف بالأساس إلى الحفاظ على استقرار الأمة وأمنها، وكذا عدم المساس بدينها وحقوق أهلها. فهل أوفى كل هؤلاء ما عاهدوا؟ أم خالفوا ونافقوا وعملوا على دس السم في جسد الأمة في جنح الليل وهي نائمة مطمئنة، لتصحوا بين الحين والآخر على مرض الفتنة وآلمه الفتاك،؟ هذا الألم الذي لا يميز بين الأخضر وبين اليابس، ولا فيما بين الصالح والطالح، مثلما هو الحال في زمننا هذا، خلال سنوات ما وصف بالربيع العربي، الذي راح ضحيته آلاف الأبرياء بدعم روسي إيراني من ناحية، وأمريكي أوربي من ناحية أخرى.

ويذكرنا هذا بحروب الوكالة زمن الحرب الباردة، عندما كان يتصادم الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة بشكل غير مباشر عبر حلفائهما وأتباعهما.[٤٧] وتتجلى مظاهر ذلك في وقتنا الراهن، الذي يتميز بظهور قوي إقليمية جديدة ، وبتغيرات دولية معاصرة، من خلال ما حدث بأوكرانيا على سبيل المثال، وما يحدث ببعض أصقاع عالمنا الإسلامي، شأن ما هو الحال بالعراق وسوريا واليمن... وبعض دول إفريقيا جنوب الصحراء، حيث القتل والدمار والتخريب. ويروح ضحية ذلك كل يوم الأبرياء من النساء والأطفال والشيوخ، ناهيك عن التشرد والاغتصاب وموت الفارين من الحرب جراء الجوع والغرق وقسوة البرد بفعل موجة الثلوج الكثيفة التي هطلت خلال شتاء ٢٠١٥ في بعض المناطق المتحاربة وفي مقدمتها سوريا. تحدث كل هذه المأساة وأطراف النزاع ماتزال تستغل الثروات المحلية العمومية، وتبحث عن الأموال الخارجية، دفاعا عن أهدافها ومصالحها الضيقة، وكراسيها السياسية، مستغلة في ذلك انتماءاتها الإيديولوجية والمذهبية، والأمة بطبيعة الحال في طريقها نحو مزيد من التخريب والدمار والتقسيم والتفقير. وتعاني أقطارها من عدم الاستقرار السياسي بسبب التدخلات الأجنبية وطبيعة الأنظمة الاجتماعية المحلية وهشاشة الدولة القائمة.[٤٨] وهذا ما يجعلنا نتساءل أليس لهذه الأطراف المتصارعة أو لبعضها قلوب وعقول يفقهون ويعقلون بها؟ هل أصبح الأمر أكبر من طاقتهم، وخارج عن إرادتهم، بعدما كانوا رأس عود الثقب الذي تم حكه بأيدي خارجية، لإشعال نار هذه الحرب المدمرة؟

وبقدر ما نأمل أن يخرج الله من رحم هذه المأساة والظلام القاتم، بصيص نور تسير الأمة في طريقه نحو الأمام والغد الأفضل، بقدر ما يبدو لنا أن الترياق الآني والمستعجل لإخماد داء هذا السم الفتاك، الذي ينخر جسد الأمة ويمزقه إربا إربا، في ظل هذا الواقع المأزوم الذي أرخى بظلاله حتى طال أمده، هو ضرورة تحلي الأطراف المتصارعة التي أصبحت في وضع حرج، بالشجاعة والحكمة، كي تقف وقفة متأنية مع ذاتها فرادى وجماعات، للخروج من هذه الورطة التاريخية. ذلك بأن تؤمن بخيار ثقافة الحوار، وأن توقف كل أشكال القتل والاقتتال، وتقدم ما يكفي من التنازلات المرحلية، لتحقيق التوافقات السياسية، حفاظا على مصالح الأمة وعلى دماء الأبرياء، وتلك أفضل النتائج، بل وأشرفها. فالدنيا برمتها أهون عند رب العباد، رب العالمين، من قتل نفس بغير نفس أو فساد في الأرض. والحال أن مَنْ قام بذلك، كأنما قتل الناس جميعا. فما بالنا بمن اغتصب الأموال وهتك الأعراض وقتل آلاف الأبرياء، من الأطفال والنساء والشيوخ والعجزة... من غير وجهة حق، ومن دون فساد في الأرض.

وعندما ما تخرج الأمة بإذن الله من هذه الورطة وتسترجع بعض عافيتها، لابد لها من وصفة طبية طويلة الأمد، لاستئصال سم هذا الداء القاتل. ذلك بأن ترسي فيها قواعد العدل والمساواة من جهة، وأن تؤمن المذاهب المختلفة بخيار الحوار وقرع الحجة بالحجة لفرز الأصلح والأفضل والأقوى، بقوة الرأي والحجة في ضوء الكتاب والسنة، أي في ضوء الشريعة الإسلامية التي يؤمن بها الجميع ويحارب من أجلها الجميع. وإذ لم نجرؤ في زمننا هذا، خلال ما وصفوه بالربيع العربي، الذي كانت بعض أمطاره دماء الأبرياء، وجنى الناس منها الرعب والتشريد واغتصاب الأموال وهتك الأعراض، والموت جوعا وتعذيبا وغرقا وبردا...على أن نتهم أحدا بإدعاء ذلك فقط . الحرب من أجل الشريعة، لحاجة أو لحاجات في نفسه، من منطلق حسن الظن بالله وحسن الظن بعباده. فلا مراء أن البعض إن لم نقل الكثير، طبع الله على قلبه بما كسبت يداه، فعميت بصيرته، وضل الطريق المستقيم، وتاهت به السبل، ولم يجد سوى خيار القوة والعنف وحمل السلاح، بدل الحوار والتعايش والتفاهم للدفاع عن مصالحه، فأشعل وأجج فتيل هذه الحروب القاتلة والمدمرة.

وفي الشرع ما يكفي من الآيات والأحاديث الشريفة التي تجرم سفك الدم الحرام، كما تنهى عن التفرقة والظلم. ومنه يتضح أن عليًا (كرم الله وجهه)، كان صاحب موقف تاريخي حكيم في تدبير الاختلاف، للمقاصد الشرعية السالفة الذكر، وعلى رأسها حقن الدماء. عمليًا، بالرغم من شتم الخوارج لعلي رضي الله عنه ولأصحابه، بل وتكفيرهم، فقد خاطب علي من بقي منهم على رأيه قائلاً، قفوا حيث شئتم حتى تجتمع أمة محمد (ﷺ)، بيننا وبينكم أن لا تسفكوا دمًا حرامًا، أو تقطعوا سبيلاً، أو تظلموا ذمة، فإنكم إن

فعلتم فقد نبذنا إليكم الحرب على سواء.[٤٩] وقد أشار عليه بعض أصحابه أن يقاتلهم، فرفض ذلك وقال قولته الحكيمة، "قوم رأوا رأيًا فدعوهم وما رأوا".[٥٠] إن ما يهمنا في هذا النص، الذي يعيد إلى الواجهة قولا مأثورا، يعبر بشكل واضح عن قناعة الإيمان بآلية الحوار لتدبير الاختلاف، من منطلق الإيمان أيضا بحرية الرأي والتعبير، واحترام مواقف الغير، كونه ينطوي على هذه الحكمة التاريخية، التي لم يتم للأسف التقاطها واستثمارها بشكل جيد وعملي، سواء في الماضي أو الحاضر.

وعليه، فالنص لا يسجل سبقًا تاريخيًا للعالم الإسلامي، مقارنة بالفلسفة الغربية، في باب حماية الحق في التعبير والاختلاف فحسب، بل يبدو أننا لا نبالغ إذا قلنا إنه يؤسس لمفهوم الفضاء العمومي، بمعناه الراهن في علم الاجتماع والفلسفة الغربية المعاصرة، خصوصا عند هابرماس، الذي يعرفه بالمجال المتاح لجميع المواطنين، حيث يجتمع الجمهور للتعبير عن رأي عام، كونه مجال الحوار والنقاش. وبذلك يرمز حسب فولتون إلى واقع الديمقراطية في نشاطها وممارستها وأنه لا يمكن تقرير وجوده.[٥١] ومن ثَمَّ، يبدو أننا لا نحيد عن الصواب إذا قلنا إنه كان في حسن إصغاء الخوارج. وفي اتعاظ من جاء بعدهم .لهذا الرأي السديد، بل والحكمة التاريخية النادرة، خير الأمة وصلاحها. فيبقى هؤلاء آنئذ على مواقفهم حيث شاءوا إلى أن تجتمع الأمة، أو يلجؤوا إلى الاستمرار في المناظرات والحوار وقرع الحجة بالحجة، فيستوعب الجميع الجميع، وتتجنب الأمة القتل والاقتتال ومآسيهما، والبقاء حينها للأقوى، بقوة الرأي والحجة. ولنا في تاريخنا ما يمكن أن نهتدي ونستأنس به في هذا الإطار، لتدبير اختلافاتنا وحل أزماتنا المعاصرة، التي يبدو أنها صدرت إلينا في جزء منها من الخارج، وإن كانت لها بطبيعة الحال أسباب داخلية.

وهنا لا بد لنا من تأييد ما يراه خالص جلبي، كون القابلية للاستعمار هي التي تقول للاستعمار أنا هنا تعال فاركب على رقبتي ويحق لنا أن نتساءل، هل كذلك كان الحال مع غزو العراق على عهد الصدام؟، والدول تنهزم بتفككها الداخلي وانهيار الحضارات يتم بعلة الانتحار الداخلي، أكثر من قصور طاقة التكنولوجيا أو اكتساح خارجي.[٥٢] وبقدر ما نوافقه الرأي على ذلك، على أساس أن ما أصابنا من مصيبة بما كسبت أيدينا، "ويعفو عن كثير"[٥٣] من جهة، ولقوله جل علاه "واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا"،[٥٤] من جهة أخرى. وهي آية قرآنية تدعو إلى الوحدة والجماعة، وتنهى عن الاختلاف والتفرقة، كما هو حال الأمة اليوم، وفي ذلك قسط من أسباب هلاكها بطبيعة الحال، بقدر مانريد أن نشير كما هو معلوم، أن الظاهرة الاجتماعية غير الظاهرة البيولوجية. بالنسبة للظاهرة الطبيعية، قد يكون العامل الداخلي كما قال جلبي، هو الحاسم في الصحة والمرض، في ضوء الصراع القائم بين الهجوم الجرثومي الذي لا يعرف الاستراحة والتقاعد والإجازة، وبين جهاز المناعة الذي تأخذه السنة والنوم أحيانا، لسبب أو لآخر فينهار، ومع انكسار التوازن يتولد المرض.

أما بالنسبة للظاهرة الاجتماعية، فالواضح أن اختراقها لا يطابق تماما اختراق الظاهرة البيولوجية، مما يشكك إن لم نقل يبطل القياس بينهما. فالأولى أعقد من الثانية بكثير، والإنسان في ذاته أعقد منهما، إنه الكائن الغامض المنفلت، المستعصي على الفهم، الكائن المخادع المخاتل، الذي يجمع في ذاته بين الشيء وضده في الآن نفسه، مثل جمعه فيما بين الحق والباطل، والقوة والضعف والخير والشر، والحب والكره. بيد أنه يستطيع أن يقدم إليك نفسه كما يريد، وعلى الصفة التي يريد، وفي الوقت الذي يريد، حسب أهوائه ومصالحه وقيمه ومبادئه. ومن هنا نفهم لماذا جعل الله "المنافقين في الدرك الأسفل من النار".[٥٥] وبعض هؤلاء هم الذين دسوا السم في جسد الأمة، وهي صاحية نائمة، لتصحو وتنام، مثلما هو الحال اليوم، على فتنة مدمرة. ولعل ذلك ما جعل البعض اليوم، يعتبر قتال الشيعة أفضل من جهاد أهل الشرك. وهو الموقف ذاته الذي أفتى به فقهاء السنة، حسب ما أورده الدباغ والقاضي عياض، استنادا إلى دراسة معاصرة،[٥٦] حدث ذلك إثر انضمامهم إلى ثورة أبي يزيد ضد الفاطميين. فقد نظر فقهاء القيروان إلى ما قام به العبيديون من تغييرات في العبادات والطقوس، على أنه من قبيل الكفر، فقد اسقط المروزي عامل المهدي على القيروان صلاة التراويح، كما أحدث القائم تغييرات جوهرية في الشرائع والأحكام أثارت غضب فقهاء السنة.[٥٧]

وفي المقابل يذكر صاحب كتاب "لله ثم للتاريخ" أن فقهاء الشيعة الإثنى عشرية قارنوا السني بالكافر والمشرك والخنزير وجعلوه من الأعيان النجسة، وليس هذا فحسب، فالسني كما جاء في بعض الفتاوى التي يسوقها المؤلف" حلال الدم... فإن قدرت أن تقلب عليه حائطًا أو تغرقة في ماء لكي لا يشهد عليك فافعل.[٥٨] وخير دليل يمكن أن نستأنس به في هذا الإطار، للخروج من هذا الشتم والسب المتبادل، ومن دائرة الصراع الفكري والسياسي والعسكري بين السنة وبين الشيعة[٥٩] وبين غيرهم من الفرق الأخرى، ما قام به إدريس بن عبد الله، على حد قول باحث معروف،[٦٠] إذ حرص على استرضاء كافة القبائل على اختلاف مذاهبها، فاسترضى أهل السنة حين دعا إلى كتاب الله وسنة نبيه، كما استرضى الخوارج، حين نص على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعبرت أقواله في التوحيد والعدل عن حرصه على كسب المعتزلة.

يتضح هذا من خلال خطبته التي دشن بها قيام دولته، ومما جاء فيها "الحمد لله الذي جعل النصر لمن أطاعه وعاقبة السوء لمن عانده. ولا إله إلا الله المتفرد بالوحدانية... أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه وإلى العدل في الرعية والقسم بالسوية... اعلموا عباد الله أن من أوجب الله على أهل طاعته المجاهدة لأهل عدواته ومعصيته باليد واللسان وفرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وإذا كان محمود إسماعيل يرى في خلو خطبة إدريس بن عبد الله من أي ذكر للتشيع، تسترا على أهدافه السياسية، لأنه أدرك خطورة إثارة تشيعه، حتى لا يحدث فرقة في وقت كان فيه بحاجة ماسة إلى تعضيض الجميع،

ولذلك لم يشر حتى إلى اعتبار نفسه إماما،[٦١] فالراجح أنه من الأخطاء الشائعة، كما جاء على لسان أحد الدارسين، ونساير الرأي في ذلك، القول بأن دولة الأدارسة دولة شيعية لأن مؤسسيها وأمرائها كانوا من آل البيت. والحقيقة أن الأدارسة رغم علويتهم لم يكونوا شيعيين، بل لم يكن أحد من رجال دولة الأدارسة أو أتباعهم شيعيا، فقد كانوا سنيين، لا يعرفون الآراء الشيعية التي شاعت أيام الفاطميين، ولم يعرفوا في بلادهم غير الفقه السني المالكي. وبدهي أن آل البيت لا يمكن أن يكونوا شيعة لأحد، أما الشيعة فهم أنصارهم.[٦٢] ويدعم شرعية هذا الرأي، الصراع المرير الذي خاضه الأدارسة وأهل المغرب مع الفاطميين.

وأيًا ما كان الأمر، فقد استطاع إدريس بن عبد الله أن يؤسس أول تجربة سياسية ناجحة لآل البيت في المغرب بعد صراعهم ومعاناتهم الكبرى في الشرق مع العباسيين، وقد استطاع بالفعل أن يوحد كافة الأطراف الملتفة حوله، وأن يستوعبها كلها من دون إقصاء لأن شعاراته كانت واضحة ومقنعة للجميع، كونها مستمسكة بالكتاب والسنة من ناحية، ومتعالية عن المذهبية من ناحية أخرى. هذا الذي تحتاج إليه الأمة اليوم، لحقن دماء الأبرياء، والحفاظ على مصالحها، وعلى ما تبقى من قوتها وعزتها، على أن المعركة الفكرية لفرز الصالح من الطالح في هذه المذاهب الفكرية المغذية لهذا البلاء والمحن التي عاشتها الأمة وما تزال، تبقى مشروعا مفتوحا على المستقبل، وهي مسألة ليست بالهينة كما قلنا سابقا بطبيعة الحال، بل تتطلب عقودا وأجيالا. فالواقع أن من اعتقد رأيا أو ذهب مذهبا وتصوره وتحقق به صارت أخلاقه وسجاياه مشاكله لمذهبه واعتقاده فيصعب إقلاعه عنها وتركه لها.[٦٣]

ولا سبيل لقوة الأمة إلا بإجماع شملها، واتفاق كلمتها، ووحدة دينها ومذهبها. وقد سبقت الإشارة إلى أن الله يؤيد دينه بالاتفاق والائتلاف، وحرم مسالك الشتات ودواعي الاختلاف، سيرا على نهج النبي الكريم، وعلى خطى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما من بعده، في سعيهما لتحقيق الأمن والعدل والمساواة بين الناس على اختلاف أصنافهم وألوانهم... وصدق إخوان الصفاء الرأي -بغض النظر عن مذهبهم الفكري-، إذ قالوا: "إن دولة أهل الخير يبدأ أولها من قوم علماء حكماء وأخيار فضلاء يجتمعون على رأي واحد، ويتفقون على مذهب واحد، ودين واحد ويعقدون بينهم عهدًا وميثاقًا، أن لا يتجادلوا ولا يتقاعدوا عن نصرة بعضهم بعضا، ويكونوا كرجل واحد في جميع أمورهم، وكنفس واحد في جميع تدبيرهم فيما يقصدون من نصرة الدين وطلب الأخيرة".[٦٤] وما أحوج الأمة اليوم إلى تطبيق هذا الرأي، سيرا على كتاب الله وسنة (ﷺ)، ومدخل ذلك في اعتقادنا التحلي بالحكمة والعزيمة وحسن الرأي، واستحضار ما قاله علي (رضي الله عنه)، وما فعله مع الخوارج عندما رفض قتالهم، رغم أنهم شتموه وكفروه، وكان في الوقت نفسه مستعدا لحوارهم ومناظراتهم، ليتبين لهم الحق والرأي الحسن.

وفي تاريخنا وتراثنا ما يجسد أيضا مثل هذا الميل إلى جمع الشمل واتفاق الكلمة في تاريخ الأمة، مثلما حدث عندما تنازل الحسن بن علي (رضي الله عنه)، لمعاوية حقنا للدماء.[٦٥] سبيل ذلك سبيل ما قام به أبو بكر بن عمر، عندما رام إلى جمع الكلمة ونبذ الحرب والفرقة، فقبل هدية ابن عمه يوسف ابن تاشفين، وطابت نفسه بها في ضوء رواية صاحب الحلل الموشية، ويعيد ذلك أيضًا إلى الواجهة قولته الحكيمة: "هذا خير كثير ولم يخرج الملك من بيتنا، ولا زال عن أيدنا والحمد لله على ذلك".[٦٦] ونعتبر ذلك رأينا عقلانيًا ونقر بوجاهته، فكم من إخوة وأبناء عمومية... فرقهم الصراع حول الملك والمال، وراح ضحية ذلك آلاف الأبرياء، واطمع فيهم الأعداء، ممن ينتهزون الفرص، ويستغلون فترات ضعف الأمة وصراعاتها المذهبية، مثلما هو الحال اليوم في بعض البلدان الإسلامية، وكما حدث في الماضي، فيتم تخريب الديار، وهتك الأستار، وقتل الشباب.[٦٧]

وخير دليل نسقوه على ذلك، ما ذكره المقري، نقلاً عن أحد الدارسين، كون شارل مارتل خاطب قومه عندما بثوه شكواهم من أن العرب قد وقفوا على أبواب بلادهم قائلاً: "لا تواجههم في إقبال أمرهم، فإن لهم إرادة قوية ونية صادقة وحصانة من أن يهزموا، حتى تهدأ أمورهم ويأخذوا في التنافس في الرياسة والملك والمال، وعند ذلك تتفرق كلمتهم ويضعف أمرهم فتتمكنون منهم بأيسر مجهود".[٦٨] وفي هذا ومثله، خلاصة لما تقدم، عبرة لِمَنْ يعتبر، من أنصار المذهبية والطائفية والعرقية والقبلية... لتحاشى الشقاق ورأب الخلاف، لتحقيق الأمن والعدل والوحدة والقوة...، حفاظًا على مصالح الأمة، وعلى دماء أبنائها من كل هدر غير شرعي ولا مشروع.

خاتمة

خلاصة القول؛ بات واضحًا أن الرجوع إلى التاريخ يشكل ضرورة علمية ومنهجية لفهم الحاضر واستشراف المستقبل، بل ويمكن أن يشكل صمام أمان لتلافي الخلافات، التي من شأنها أن تزج بالأمة في حروب مدمرة، يقتل فيها الأبرياء، وتنفق عليها أموال تعمق جرح البلاء- التضخم، أصل القهقري وزوال الدول والحضارات. ولا مشاحة أن الاختراق الذي حدث للأمة منذ وقت مبكر، وما واكبه من تشرذم سياسي وتعدد مذهبي، كان من بين أسباب بعض الحروب التي عاشتها الأمة في الماضي، شأن ما يحدث في الوقت الراهن، إذ تهدر الدماء وتغتصب الأموال والأعراض...، وبات التعامل قائما على حد السلاح لحماية المصالح، وازداد الوضع تعقيدًا لما طغت عليه الأبعاد المذهبية والإيديولوجية.

ولا سبيل لخروج الأمة من هذه المحنة، وتفادي أمثالها في المستقبل، إلا باستئصال أسباب اندلاعها، ووأد جرثومتها الخبيثة المتمثلة في تعدد المذاهب واختلافها. والحال أنه لا قبل لعهد النبي (ﷺ) بذلك. وحري بنا أن نقتدي به في تدبير أمورنا، وأن نستلهم من التاريخ ما يفيدنا في تدبير اختلافاتنا، لجمع شمل الأمة وتوحيد كلمتها و تحقيق نهضتها. سبيل ذلك ينبني على الحوار عوض الاقتتال، حقنا للدماء، وحماية ما تبقى من مصالح البلدان والعباد. ذلك باحترام

الكل للحق في الرأي والتعبير، ولحق الترافع والتدافع السلميين داخل الفضاء العمومي. وتبقى المعركة الفكرية لتوحيد الرؤية، وتجاوز واقع الاختلافات المذهبية، سبب بعض الفتن، ماضيها وحاضرها، مشروعًا علميًا سياسيًا مدنيًا...، مفتوحًا على المستقبل بإذن الله تعالى. والبقاء آنئذ للأصلح والأقوى بقوة الرأي والحجة وصلاحهما.

الهَوامِشُ:

(١) ابن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق درويش الجويدي المكتبة العصرية، صيدا بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ-١٩٩٥ ، ص. ٤٠

(٢) إخوان **الصفاء وخلان الوفاء، الرسائل**، ج١، تحقيق، عارف تامر منشورات عويدات، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ-١٩٩٥، ص. ١٢٣

(٣) ابن خلدون، مصدر سابق، ص. ٤٦

(٤) محمد أحمد ترحيني، **المؤرخون والتاريخ عند العرب**، ص.٢٣

(٥) مجهول، **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الطبعة الأولى، ١٣٩٩-١٩٧٩، ص. ١٤

(٦) ابن خلدون، **المقدمة**، ص. ١٦

(٧) مجهول، مصدر سابق، ص. ١٤

(٨) محمد عابد الجابري، **العقل السياسي العربي، محدداته وتجلياته**، مركز دراسات الوحدة العربية، ط. ٧، ٢٠١٠، ص٢٩٩.

(٩) أحمد أمين، **ضحى الإسلام**، جزء ٣، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة ٨، ١٩٣٦، ص٢٠٨.

(١٠) ابن خلدون، **المقدمة**، ص١٨٣.

(١١) أحمد أمين، مرجع سابق والصفحة.

(١٢) المرجع نفسه، ص٣٣١.

(١٣) الجابري، مرجع سابق، ص ٣٠٤.

(١٤) أحمد أمين، م س، ص٣٣٢.

(١٥) الجابري، م س، ص ٢٣٩-٢٤٠.- ابن خلدون، **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، دار ابن حزم، ط ١، ١٤٣٢-٢٠١١، ج٢، ص ٩٥٩.

(١٦) محمود اسماعيل، **الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري**، رؤية للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٠، ص. ١٩١

(١٧) المرجع نفسه، ص١٩٦-١٩٧.

(١٨) المرجع نفسه، ص٤٢٠-٤٢١.

(١٩) المرجع نفسه، ص١٩٤.

(٢٠) حسين مؤنس، **معالم تاريخ المغرب والأندلس**، دار الرشاد، ط.١، ١٤٣٠هـ٢٠٠٩، ٣ – ١١٨.

(٢١) محمود اسماعيل، **الخوارج** ...م س، ص ١٩٧.

(٢٢) حسين مؤنس، مرجع سابق والصفحة.

(٢٣) المرجع نفسه، ص ١١٩.

(٢٤) الجابري، **العقل السياسي العربي** .... م س، ص ٣٠٥.- ابن خلدون، العبر ج ٢، ص ١٠٩٠.

(٢٥) أحمد أمين، **ضحى الإسلام**، م س، ٣ ص ٣٣١.

(٢٦) محمود اسماعيل، **الخوارج في بلاد المغرب**، ص ٤١٤.

(٢٧) الجابري، مرجع سابق ص٣٠٤.

(٢٨) محمود إسماعيل، **الخوارج في بلاد المغرب**، ص ٤١٥

(٢٩) يرجى الرجوع في هذا الإطار إلى مجموعة من المصادر نذكر منها على سبيل المثال ما يلي: (ابن خلدون، العبر - المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك - ابن الأثير، الكامل في التاريخ - ابن كثير، البداية والنهاية).

(٣٠) حسين مؤنس، مرجع سابق، ص١٣٩.

(٣١) **سورة الأنفال**، آية (٣٠).

(٣٢) محمد سهيل طقوس، **تاريخ الخلفاء الراشدين، الفتوحات والانجازات**، دار النفائس، ط٢، ١٤٣٢-٢٠١١، ص٢٤٨.

(٣٣) الجابري، مرجع سابق، ص ٢٤٢.

(٣٤) مجهول، **الحلل الموشية**، ص٤٧.

(٣٥) **سورة الأنعام**، آية (١٥٩).

(٣٦) **سورة آل عمران**، آية (١٠٣).

(٣٧) انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق حامد أحمد الطاهر، ج١، دار الفجر للتراث القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٣٢ هـ٢٠٠٢م، ص٥٨١.

(٣٨) المرجع نفسه، ص٥٨٢.

(٣٩) إخوان الصفاء، مصدر سابق، ج١، ص ٢٩٥.

(٤٠) الجابري، مرجع سابق، ص٣٠٤-٣٠٥.

(٤١) أحمد أمين، مرجع سابق، ص ٢٠٩-٢١٠.

(٤٢) حسين مؤنس، مرجع سابق، ص١٣٧.

(٤٣) محمد قباني، **الدولة الأموية من الميلاد إلى السقوط**، دار وحي القلم، ط١١، ١٤٣٠هـ٢٠٠٩م ص ١٠٦-١٠٧.

(٤٤) حسين مؤنس، مرجع سابق، ص١٦٧.

(٤٥) **سورة الأنعام**، أية ١٥٣

(٤٦) انظر: **جريدة المساء**، العدد ٢٥١٧، السبت- الأحد الأثنين،٠٣-٠٤-٢٠١٥/٠١/٠٥، ص١١.

(٤٧) المختار مطيع، **المشاكل السياسية الكبرى المعاصرة**، منشورات إيزيس الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ١٩٩٣، ص ١٠٣

(٤٨) المرجع نفسه، ص ١٠٤

(٤٩) انظر: ابن كثير، **البداية والنهاية**.

(٥٠) الطبراني.

(٥١) نقلاً عن: عبد اللطيف بن صفية، "**الاعلام المجتمعي المفهوم والمرتكزات والرهانات**"، مجلة أبحاث،ع٦١-٦٢، السنة ٢٠١٥، ص١٠٣.

(٥٢) خالص الجبلي، "**عناصر الانهيار الداخلية والخارجية أيهما الأهم**"، جريدة الأخبار، العدد ٦٤٢، الثلاثاء ١٦ دجنبر ٢٠١٤، ص٧.

(٥٣) **سورة الشورى**، آية (٣٠).

(٥٤) **سورة آل عمران**، آية (١٠٣).

(٥٥) **سورة النساء**، آية (١٤٥).

(٥٦) محمود إسماعيل، **الخوارج في بلاد المغرب**، ص٣٨٣.

(٥٧) المرجع نفسه والصفحة.

(٥٨) انظر: **جريدة المساء**، العدد ٢٥٧١، السبت الأحد، الاثنين، ٠٣-٠٤-٢٠١٥/٠١/٠٥، ص١١.

(٥٩) محمود إسماعيل، **الأدارسة في المغرب الأقصى**، حقائق جديدة، ١٧٢ هـ ٦٣٧٥، مكتبة الفلاح للنشر وللتوزيع، ط١ ١٤٠٦-١٩٨٩م، ص٢١.

(٦٠) المرجع نفسه، ص٦١-٦٢.

(٦١) المرجع نفسه، ص٦٢-٦٣.

(٦٢) حسين مؤنس، **معالم تاريخ المغرب والأندلس**، ص١٢٣.

(٦٣) إخوان الصفاء، **الرسائل**، ج١، ص٢٩٥.

(٦٤) المرجع نفسه، ص١٩١.

(٦٥) جرجي زيدان، **تاريخ التمدن الإسلامي**، ج١، دار مكتبة الحياة، ص٧٩.

(٦٦) مجهول، **الحلل الموشية**، ص٢٨.

(٦٧) المرجع نفسه، ص٤٢.

(٦٨) محمد كمال شبانه، **الأندلس دراسة تاريخية حضارية**، دار العالم العربي، ط٢، ٢٠٠٩، ص ٣٣.